رأي آخر في رواية

"الخندق الغميق"

بقلم ميخائيل نعيمة

عزيزي الدكتور سهيل

عليك مني اطيب السلام . وبعد فاني ارحب بروايتك الجديدة « الخندق الغميق » . فالموضوع شيق ، واقتحامه لا يخلو من المغامرة . ذلك لانه يتصل مباشرة بالدين وتقاليده . وللدين وتقاليده عندنا جذور سحيقة وعتيقة تتغلغل في كل جانب من جوانب حياتنا . حتى انها باتت تتمتع بحصانة القداسة والتقديس ، وبات التعرض لها باقل نقد ، والخروج على اي مظهر من مظاهرها ، ضربا من الكفر بالحياة .

الا ان طاقة الحياة الكامنة في فكر الانسان وقلبه وخياله وارادته لا تعرف الحدود . وهي في اندفاعها الابدي من المجهول الى المعلوم ، ومن اللاوعي الى الوعي ، ومن الانغلاق الى الانطلاق لا تقيم أي وزن لاي عمل لا يتفق وارادتها ، ولا تعترف باية قداسة غير قداستها . لذلك تأبى علينا السكون والاستكانة . وتفرض علينا الصراع فرضا ما دمنا لاهين عن لبابها بالقشور .

وها انت في « الخندق الغميق » تمثل جانبا من ذلك الصراع . فتجعل ميدانه اسرة مسلمة على رأسها شيخ متمسك كل التمسك بتقاليده الاسلامية . وتقيم من سامي — احد ابناء الشيخ واحبهم في البداية اليه — خصما عنيدا له من بعد ان تفتح فكره وقلبه فتفجرت الثورة في نفسه على كل ما يحد من انطلاقه نحو المعرفة والحرية والحياة الانسانية السوية .

ولقد احسنت في وصفك لنشأة سامي ، وكيف انه ، في مستهل شبابه ، اختار ان يكون من رجال الدين . فدخل المعهد الديني ولم يلبث أن اعتمر العمامة وارتدى الجبة . واحسنت كذلك في وصفك لحياة الطلبة والمعلمين داخل المعهد — تلك الحياة التي كان منها ان تحول شغف سامي بالعمة والجبة الى كره لهما. **فكان ذلك الكره بداية الصراع العنيف بينه وبين والده ، وبداية الثورة في حياة الاسرة .**

واحسبك بلغت سخرية موليير في Tartuffe عندما جعلت الشيخ الذي يدرس الحديث في المعهد الديني « يغضب ويثور » لان احد الطلاب ابدى شكه في قيمة حديث منسوب الى النبي . فما كان من الشيخ الا ان افحم الطالب المشكك بذلك الشرح المضحك والمخزي في آن معا (ص. ٤٤ — ٤٥) . وكذلك عندما كشفت النقاب عن الرواسب الخسيسة في نفس الوالد المتدين الى حد التزمت عندما جعلته — وبيته في غليان — يعود ذات يوم من حلب ليفاجيء زوجه وبنيه بخبر زواجه من امراة ثانية في حلب — ذلك الخبر الذي انقض على اسرة « الخندق الغميق » انقضاض الصاعقة . فكان تفجع وعويل . وكان تهديد ووعيد . وكانت ثورة عارمة على الاب انتهت بتراجعه ، ثم باصابته بالفالج ، ثم بوفاته .

لقد اندحر الجيل القديم من وجه الجديد ابشع الاندحار . بل أنه لفظ انفاسه الاخيرة . ومضى الجيل الجديد يشق طريقه الى حيث تدفعه اشواقه الملحة .

فسامي يستعد للسفر الى الخارج طمعا في المزيد من العلم . وشقيقته هدى لا ترضى من التحصيل باقل من البكالوريا ، وكان والدها قد حرم ذلك عليها . وفوزي الذي بلغ من التدهور الخلقي حدا لم يتورع معه عن سرقة المال الذي كان اخوه سامي يذخره للدرس ، يعود الى رشده فيستغفر اخاه ويقلع عن دعارته ومخازيه . و « الخندق الغميق » الذي عاش اجيالا خلف سجف كثيفة من العادات القديمة والتقاليد المتحجرة ينفتح بغتة على العالم الاوسع فيدرك **ان ما من مقدسات في الارض غير اشواق الانسان الى المعرفة — الى الانطلاق — الى الحرية .** وان جميع « المقدسات » تغدو عقبات اذا هي وقفت في وجه تلك الاشواق التي لا بد ان تتخطاها في النهاية عقبة عقبة . فالنصر لها . والهزيمة لاخصامها .

ذلك هو اللب الذي تذوقته — واستطبته — في « الخندق الغميق » . وهو المبرر الاكبر لخلق الرواية . اما الحب الذي نشأ بين سامي وسميا ، والذي بدا لي في اول الامر انك ستعالج فيه مشكلة التزاوج بين الطوائف في لبنان ، فما اظن انه يدفع بالرواية الى الامام من حيث موضوعها الاساسي . وافعل منه في نفس القارىء هو ذلك الحب الخفر الذي نزل على قلب هدى وقلب رفيق نزول الندى على الخميلة المطمئنة . فكان خروجا على التقاليد التي تحظر على فتاة مسلمة مجالسة أو مكالمة اي فتى لا يمت اليها باقرب النسب . فهو حب فيه تحدٍّ . ولذلك ينسجم وموضوعك اجمل انسجام .

رايتك في بعض فصول القسم الثاني من الرواية تنتقل في السرد انتقالا فجائيا من لسانك — وانت المؤلف — الى لسان هدى ، وهي شخص من شخوص الرواية . وذلك بدون اقل مبرر . فهل لك من وراء ذلك غاية غابت عني؟

انه لموضوع الساعة ، بل موضوع كل ساعة ، ذلك الذي اخترته لروايتك . واعني الصراع المستمر بين جيل يشق طريقه وجيل يسد الطريق . وانه ليسرني يا اخي ان اشهد بانك احسنت عرض جانب بالغ الاهمية من ذلك الصراع في حياة لبنان وغيره من الاقطار العربية . وانك في « الخندق الغميق » قد خطوت خطوة واسعة — وجريئة — الى الامام . ورجائي ان تتبع هذه الخطوة خطوات اوسع واجرا .

ميخائيل نعيمه